بولس الرسول بريشة يوحنّا الذهبيّ الفم

الأب ميلاد الجاويش المخلّصي

مقدّمة

سريرٌ من خشب، وفوقه صورةٌ لبولس الرسول. هذا كلّ ما كنّا سنجده لو قدِّر لنا أن ندخل قلاّية بطريرك القسطنطنيّة يوحنّا الذهبيّ الفم. لمّا استلم هذا القدّيس القصر الأسقفيّ من خلفه نكتاريوس، باع كلّ ما كان موجودًا من مقتنيات فخمة ونفيسة ووزّع ثمنها على الفقراء والمعوزين، ولم يُبقِ في غرفته إلاّ على صورة للقدّيس بولس. هذه "التركة" الثمينة تكفي وحدها لنستدلّ كم كان يعشق الذهبيّ الفم بولسَ الرسول. في إحدى كتاباته قال: "لم يحبّ أحدٌ المسيح كما أحبّه بولس"(١). ونحن نقول: لم يحبّ أحدٌ بولس كما أحبّه الذهبيّ الفم. أحبّه حتّى العشق، ودعا الجميع إلى مشاركته هذا الحبّ: "سامحوني، أو بالأحرى لا تسامحوني، بل اقتدوا بهذا الحبّ. إنّ الذي يتكلّم على حبٍّ دنِس وُجب عليه طلب الصفح، ولكن مَن يتكلّم على حبٍّ مثل هذا الحبّ، عليه أن يفاخر به، وأن يسعى إلى أن يشاطر عشقه مع الآخرين، وأن يجتهد بالأكثر في أن ينافسه أحدٌ عليه"(٢).

لقد اجتاح بولسُ فمَ الذهب أيّما اجتياح: "أعترف بأنّي أحبّه بشغف عظيم، ولهذا يبقى اسمه على شفتيّ"(٣). كان يجد في قراءة رسائله لذّة ما بعدها لذّة: "عندما أستمع إلى قراءة رسائل بولس، أتهلّل فرَحًا، وقد أخذتني نشوة الإصغاء إلى ذلك البوق الروحيّ، وتملّكني شغف به لاهب. فأعرف صوت صديقي، ويُخيَّل لي أنّي أشاهده بأمّ العين وأسمع نبرات صوته"(٤). فريدةٌ من نوعها هذه العلاقة، وسرّيٌّ هذا التواصل الروحيّ الذي كان بين هذين القدّيسَين، اللذَين جمعتهما آسيا الصغرى وفرّق بينهما زمنٌ من أربعة قرون. لم يكتب أحد من آباء الكنيسة في بولس كما كتب فم الذهب. فهو الوحيد الذي خصّص له ولرسائله كلّها مئات العظات التفسيريّة، فضلاً عن العظات التي كتبها حول سِفر أعمال الرسل، حيث بولس هو البطل الذي لا يُنافسه أحدٌ. وهو أيضًا الوحيد الذي كتب فيه تقاريظ، وصل إلينا منها سبعة. حتّى عندما كانَ يفسّر أحد كتب العهد القديم، كان طيف بولس يخيّم فوق الذهبيّ الفم. ولمّا كان من الصعب جدًّا أن نحيط، في هذا المقال، بجميع

(١) في الرسالة إلى الرومانيّين، ٣٢، ٣.

(٢) *De mutation nominum*, I, 3.

(٣) في سفر التكوين، ١١، ٥.

(٤) في الرسالة إلى الرومانيّين، ٦٠، ٥٩١.

هذه التفاسير، بهدف تظهير صورة بولس كما رسمها فم الذهب، اكتفينا بلملمة بعض ما قاله يوحنّا في بولس من هذه وتلك من عظاته، مركّزين بشكل أساسيّ على التقاريظ السبعة[٥]، التي ألقاها الخطيب على مسامع أهل أنطاكية قبل سنة ٣٩٧، والتي فيها يمدح بولسَ، ويُظهر أفضل ما يُظهر خطوط شخصيّته الأخّاذة.

١- بولس المتفوّق بفضائله

"لا يخطأ مَن يرى في نفس بولس روضة فضائل وفردوسًا روحيًّا" (١، ١)[٦]. هكذا بدأ فم الذهب عظته الأولى في مديح القدّيس بولس. نفس بولس روضة فضائل، لأنّ فيه تجتمع خصائل الأنبياء والآباء والقدّيسين كافّة، بل البشر بأجمعهم. حتّى فضائل الملائكة غير المتجسّمين اجتمعت في نفس هذا المتجسّم الطرسوسيّ: "كان بولس متعرّيًا من اللحم والدم. وكان كأنّه أنكر جسده، حتّى يمكن أن يُقال إنّه لم يكن سوى نفس تتردّد في العالم، وقلبه خلا من كلّ شهوة وهوى. وفي مثل هدوء الأرواح الملائكيّة، كان يحيا على الأرض حياة سماويّة. وكان يعيش في رفقة الشروبيم، يشاركهم في أنغامهم السرّيّة. وكان يتحمّل كلّ الاضطهادات كأنّ جسده لا يخصّه"[٧].

نفسٌ كهذه، يتساءل الذهبيّ الفم، كيف لا يليق بها المديح، وإن كان المديح يقصّر أحيانًا في أن يفي بالغرض؟ لذا نراه يغالي في التعبير هنا، ويجهد في انتقاء الكلمات هناك، لكن من غير أن يصل إلى درجة الاكتفاء. وهذا مثل على ذلك: "إنطلق برنابا إلى طرسوس كي يصطحب بولس معه إلى أنطاكيا. ذهب إلى العدّاء، القائد، المصارع، الأسد! لا أعرف أيّ تعبير أختار! كلّ ما يمكنني قوله هو ما دون عظمة بولس. لقد انطلق [برنابا] إلى كلب الصيد الذي يقتل الأسود، إلى الثور الضخم، إلى النور الباهر، إلى الفم الذي يتردّد صداه في الكون"[٨]. ولكي يبدأ من مكان، فضّل أن يفتتح تقاريظه بمقارنة بين بولس وشخصيّات من الكتاب المقدّس، كلّها من العهد القديم، ما عدا يوحنّا المعمدان، فبيّن كيف فاق الأوّل بفضائله، ومن غير قياس، كلّ هؤلاء جميعًا. هذا العرض يبيّن المقارنة.

الشخصيّة	فضائلها	فضائل بولس
هابيل	– قدّم ذبيحة واحدة، وهي من طبيعة حيوانيّة؛	– كان كلّ يوم يقدّم ذاته ذبيحة عبر اقتحام الأخطار والموت اليوميّ: "لو أُرقت سكيبًا على ذبيحة إيمانكم" (فل ٢: ١٧)؛ بل قدّم الكون كلّه كذبيحة: ذهب إلى كلّ بقعة تحت الشمس ناشرًا حقيقة المسيح ومنقذًا البشر من قبضة الشيطان.

(٥) استندنا في دراستنا على الترجمة العربيّة التي قام بها الأب حنّا الفاخوري، **تقاريظ القدّيس بولس**، سلسلة أقدم النصوص المسيحيّة (النصوص التقريظيّة ١)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية ٢٠٠٢. وهناك ترجمة أخرى للتقاريظ قام بها الآباء المخلّصيّون، وعُني بنشرها الأب الياس كويتر، **خطيب الكنيسة الأعظم القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم**، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم ١١، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية ١٩٨٧. أمّا بالنسبة إلى النصّ اليونانيّ – الفرنسيّ، فاعتمدنا على: Jean Chrysostome, *Panégyriques de Saint Paul* (introduction, texte critique, traduction et notes par Auguste Piédagnel), SC 300, Cerf, Paris 1982.

(٦) كلّ استشهاد بالتقاريظ نورد مرجعه في متن النصّ، وذلك لكثرة الاستشهادات (الرقم الأوّل هو للعظة، والثاني هو للمقطع). أمّا الاستشهاد بالعظات الأخرى فنورد مرجعه في أسفل الصفحة.

(٧) **الرسائل إلى أولمبيا**، ٨، ١١، ٣٤-٤٠.

(٨) **في أعمال الرسل**، ٦٠، ١٩٢.

	– قتله أخوه قتلة جائرة لغير أذى أو إحسان بادره به؛	– مات ألف ميتة، وقتله الذين أحسن إليهم وانتشلهم من شرور لا تُحصى، والذين تحمّل بسببهم جميع آلامه؛
نوح	– كان رجلاً بارًّا وكاملاً؛ – نجا بنفسه وبأبنائه، دون سواهم، من طوفان الماء؛ أمّا الحيوانات فدخلت كما خرجت من دون أن تتغيّر طبيعتها؛ – فُلكه من خشب مطليٍّ بزفت وقارٍ؛ أبحر لمدّة قبل أن تُفكّك الأمواج أمخاله:	– انفرد بالقداسة السامية؛ – انتشل من طوفان أشدّ هولاً المسكونة كلّها، فنجّى جموعًا غفيرة كانت دون البهائم إدراكًا، فحوّلها إلى أناس نافسوا الملائكة في السموّ: "لقد استقبل ذئابًا فحوّلها إلى حملان، واستقبل صقورًا وزيغانًا فحوّلها إلى حمائم" (١، ٥)؛ – فُلكه مختوم بطابع الروح، وهو لا يزال يبحر، وعاصفة الرذيلة لم تفكّك أخشابه؛
إبراهيم	– غادر وطنه وبيته وأصدقاءه وذويه؛ – أنقذ ابن أخيه لوطًا من يد الغرباء؛ – قدّم ابنه إسحق ذبيحةً لمرّة واحدة؛	– غادر العالم كلّه وطيّباته، وحقر السماء وما فوقها من أجل محبّة يسوع؛ – أنقذ العالم كلّه من سلطان الأبالسة؛ – قدّم نفسه للذبح، وكم مرّة قدّمها!
إسحق	– ما يُمدح فيه هو تسامحه: تخلّى عمّا كان يملكه من آبار وحقول لمصلحة أعدائه، وراح ينتقل من مكان إلى آخر، من دون أن يأخذ بثأره.	– الحجارة ردمت لا آباره بل جسده؛ مع ذلك لم يتخلّ عن موقعه، بل جابه راجميه وعمل على رفعهم إلى السماء؛
يعقوب	– أشاد الكتاب بثباته لمّا كان عبدًا لحميّه مدّة أربع عشرة سنة؛	– مدّة حياته كلّها كان عبدًا لعروس المسيح؛ وعذابه لم يكن فقط لَهَبَ النهار وصقيع الليل، بل تجاوز ذلك إلى حدٍّ لا يوصف.
يوسف	– كان عفيفًا؛	– صَلَبَ نفسه زهدًا بالعالم، وتعفّف عن مفاتن الدنيا كلّها: "كان كالجثمان المائت أمام الجيفة البالية" (١، ٩)؛
أيّوب	– كان جبّارًا في صبره ونقاء حياته ونضاله وشهادته؛ لكن كان ذلك لشهور، وفي مجابهة ثلاثة أو أربعة أصدقاء؛ – كان مضيافًا ومحسنًا كريمًا على المساكين، هو من يملك خيراتٍ كثيرة؛ – ما عاناه، عاناه في جسده؛	– نضاله كان لسنوات عدّة، وفي وجه إخوة كذبة كثيرين. – حدبُه كان على من اعتلّ عقله، ومن نقصته الحكمة؛ حتّى المحتاجون إلى المادّة، كان يعطيهم من القليل الذي يملكه، وممّا أنتجته يداه؛ – بالإضافة إلى معاناة الجسد الجمّة والشدائد الأشدّ عنفًا، كان هناك تمخّض روحيّ تمامًا كما عند الأمّ التي تلد: "أعني آلام الروح عند رؤية العاثرين، والاهتمام بالكنائس كلّها" (١، ١٢)؛

موسى	– ناضل فرعونَ من أجل شعب واحد، إسرائيل؛	– ناضل الشيطانَ كلّ يوم، من أجل العالم كلّه، اليونانيّ وغير اليونانيّ؛
داود	– اشتهر بقُنوته ومحبّته لله؛	– ما من أحد مارس هاتين الفضيلتين معًا أكثر من بولس؛
إيليّا	– غيرته للربّ هي ما ميّزته؛	– يتفوّق بغيرته هو الذي أعدّ نفسه مبسَلاً كي يربح إخوته بني أمّته اليهود للإيمان: "إذا كانت السماوات في متناوله مع أكاليلها ومكفآتها، كان يتردّد ويُرجئ قائلاً: "بيد أنّ التلبّث في الجسد أشدّ لزومًا من أجلكم" (١، ١٤؛ راجع فل ١: ٢٤)؛
يوحنّا المعمدان	– عاش في البرّيّة يأكل الجراد وعسل البرّ؛ – شديد الجرأة أمام هيرودس؛	– عاش في قلب العالم متجرّدًا، لا يأكل إلا الضروريّ لانهماكه بالبشارة؛ – أغلق لا فمًا واحدًا أو اثنين بل أفواه عدد كبير من الطغاة، أشدّ من هيرودس طغيانًا؛
الملائكة	– عظمتهم في أنّهم يَخضعون لله ولأوامره؛ – هم كالريح وكلهيب نار؛ – حصلوا على السعادة السماويّة.	– التزم الطاعة لله بشكل كامل؛ – طاف المسكونة كلّها كالريح والنار وطهّر العالم؛ – يجاهد وهو بعد في جسم أرضيّ: "إنّها للفضيلة العظمى أن يسلك هذا السلوك على الأرض، وأن ينافس، وهو في جسده المائت، القوّات السماويّة التي لا جسم لها" (١، ١٥).

بعد هذا العرض، أصبحنا نفهم الذهبيّ الفم عندما قال: "أعتبره كالنموذج التامّ للكمال الأسمى. فعندما أتأمّل فضائله، أعجب فيه من الإماتة الكاملة عن الشهوات، ومن الشجاعة الممتازة، وحرارة الحبّ الإلهيّ"[٩]. لأجل ذلك كان بجد "أنّ عظمة فضائل بولس فوق مستوى بلاغة الخطب" (١: ١).

٢– بولس ضعيف الطبيعة، نعم، لكن ليس ضعيف الإرادة

نفسٌ فاضلة كهذه، هل هي من طينة البشر؟ سؤال يفرض نفسه بعد هذا العرض. وعليه يجاوب فم الذهب جازمًا: لم يكن لبولس طبيعة تختلف عن طبيعة البشر. فقد شابههم في كلّ شيء: "لم يقطن عالمًا غير عالمنا، ولكنّه نشأ على الأرض نفسها، وفي البلد نفسه، وفق الأنظمة والعادات الواحدة" (٢، ١). بيد أنّ بولس استطاع أن يرتقي بهذه الطبيعة البشريّة إلى صفائها الأصليّ الذي أراده الخالق لها، ويبيّن لنا "إلى أيّ حدّ تمتدّ قوّة الغَيرة عند الإنسان، وإمكان انطلاقنا نحو السماء نفسها" (٣، ١). لقد بلغ بولس بالطبيعة البشريّة إلى أقصى درجات النبل والفضيلة، أكثر ممّا فعل

(٩) في سفر التكوين، ١١، ٥.

أيّ إنسان آخر: "تفوّق بولس على جميع البشر منذ كان في العالم بشر" (٢، ١). ظاهرة بولس هذه هي ظاهرة إنسانٍ ترك نعمة الله تعمل فيه: "إنّ هذا الرجل قد أبدى من الغَيرة ما يتناسب والموهبة التي حصل عليها، فتألّقت فيه النعمة تألّقًا قلّ مثيله" (٤، ٢٠). وهي أيضًا ظاهرة إنسان اندمجت فيه مواهب الإنسان مع نِعم الله: "لم يبلغ الرجل هذا السموّ بقوّة النعمة وحدها، بل بإرادته الشخصيّة أيضًا، وكان عمل النعمة مزامنًا لعمل الإرادة فيه. ذلك أنّه ملكَ إلى أقصى حدّ كنزَين: المواهب الآتية من روح الله، والقوى الصادرة عن الإرادة الشخصيّة" (٥، ٣). يد الإنسان إذًا تعمل مع يد الله، لا يمكن لواحدة أن تعمل دون الأخرى. نعمة الله تؤازر الإنسان الذي يريد من الله أن يساعده. والفشل التامّ يكون عندما تقع نعمة الله على "نفس فاسقة وخلق مائع" (٥، ١). عندها لا مجال لأيّ تقدّم.

وإذا كان الذهبيّ الفم يحثّ سامعيه في ختام كلّ عظة على الاقتداء ببولس، فلأنّه كان يؤمن بأنّ كلّ إنسان، إذا ترك نعمة الله تعمل فيه، فهو قادر على أن يصل إلى المرتبة السامية التي وصل إليها بولس: "هو [الله] الذي أنشأه، وهو الذي أتى بك؛ إن كان سيّدَه فهو سيّدك أيضًا؛ وإن أشاد به علنًا، فهو يريد أن يكلّلك أيضًا" (٤، ٢١). ولمن يشتكون ويتحجّجون بضعف الطبيعة البشريّة في عدم القدرة على البلوغ إلى درجة عالية من سلّم الفضائل، ينصب لهم فم الذهب مثال بولس ويخاطبهم قائلاً: "لا بدّ لنا في كلّ مكان من الجرأة والشجاعة، ولا شيء يعوقنا عن أن يكون لنا محلّ في الطليعة. ألم يكن هذا الرجل قابلاً للموت؟ ألم يكن بلا ثقافة؟ ألم يكن مُعوزًا يعمل كلّ يوم ليعيش؟ ألم يكن له جسد خاضع لشتّى مقتضيات الطبيعة؟ ما الذي منعه من بلوغ هذه العظمة؟ لا شيء" (٥، ١). باختصار لقد عرف بولس أن يمزج بين نعمة الله وإرادته الشخصيّة كإنسان. اتّكل على هذه دون أن يهمل تلك. وفي هذا درس لكلّ مؤمن: "هو [بولس] يجعل لنعمة الله محلاً واسعًا في ما يقول، لا عن عبث بل عن حكمة، لكي يدعوك إلى التفكير في أن لا شيء يصدر عنه بمفرده؛ وهو مع ذلك يذكر إسهام إرادته، خشية أن تدع العمل كلّه لله، وتقضي وقتك في النوم" (٦، ٩).

إنطلاقًا من هذه النقطة التي طالما ركّز عليها الذهبيّ الفم في مختلف عظاته، يبدو الضعف البشريّ، الذي ظهر من حين إلى آخر في حياة بولس، دليلاً آخر على عظمته، بدل أن يكون علامة ضعف يمسكها عليه أعداؤه. كيف ذلك؟ لقد خصّص الذهبيّ الفم العظة السادسة من تقاريظه للكلام على هذه النقطة المهمّة. تكلّم، وكعادته برع. لقد برهن أوّلاً أنّ بولس يشاطر الجنس البشريّ ضعفه، ومع هذا الضعف استطاع أن يسمو إلى أعلى مراتب الفضيلة: "إنّه بنفس لا تختلف عن نفسنا، وبجسد لا يختلف عن جسدنا، كان يتحمّل الموت مرّات لا عدّ لها، ويستخفّ بالشدائد الحاضرة أو الآتية" (٦، ٢). المعادلة واضحة بالنسبة إلى الذهبيّ الفم: من ينتصر وهو خائف يكون أعظم من الذي ينتصر وليس في قلبه خوف: "إن الخوف من الجلْد يجعل الإنسان المتغلّب في القتال أعظم من الذي لا يخافه" (٦، ٣). إنّها معادلة لا تخلو من التناقض. ضعفُ بولس ليس مصدر شتيمة له، لأنّه لم يستغلّ هذا الضعف كي يسترخي بل كان له محفزًا إلى الأمام. لم نره يجبن بل جابه الموت وغلبه، وإن بمشقّة. لم نره يهرب بل انتصر، وإن "مصلوبًا للعالم" (غل ٦: ١٤): "لا يمارس الفضيلة إلاّ مع المشقّة، بحيث لا يستطيع من يأتون بعده أن يحتجّوا بيسره ورخائه لتبرير ميوعتهم" (٦، ٧). ما من إدانة في الضعف: "أن يكون المرء حزينًا أمر لا يُدان عليه، أمّا أن يتّخذ من الحزن سبيلاً إلى الكلام والسلوك على ما لا يرتضيه الله فذلك ما يُدان عليه" (٦، ٣). هذا ما يسمّيه فم الذهب التفوّق على الطبيعة، وهذا التفوّق حصل عليه بولس بفضل قوّة إرادته ومساندة الله: "باستطاعتنا، إذا شئنا، أن نسيطر بقوّة الإرادة، على أيّ نزوة من نزوات

الطبيعة، وما من شيء، ممّا فرضه المسيح، مستحيل على البشر. فإذا قدّمنا كلّ ما في وسعنا من غَيرة، يُميل الله كفّة الميزان بشدّة إلى ما فيه صالحنا" (٦، ٣). لا، ليس الجسد هو سبب عثرة الإنسان، فالشيطان بلا جسد، ومع ذلك فهو أشقى الخلائق. حجر العثرة إنّما هو في إرادة الإنسان التي ترفض أن تندمج مع إرادة الله ونعمته: "إنّ البشر يشقون، لا لأنّهم في جسد، بل لكونهم لا يحسنون استعماله. بولس أيضًا كان في جسد. من أين أتته تلك العظمة؟ منه ومن الله؛ فلَئن أتته من الله، فقد أتته في الوقت ذاته من نفسه" (٧، ٣).

من هنا يميّز فم الذهب بين ضعف الطبيعة وضعف الإرادة. صحيح أنّ بولس كان ضعيف الطبيعة، ولكنّه لم يكن أبدًا ضعيف الإرادة. قوّة الإرادة هذه هي التي جعلته، كما الشهداء، يجابه الموت وينتصر على الطغاة مع كلّ الخوف الذي استحوذ على طبيعته: "كثيرون من الشهداء عند مثولهم للعذاب، يذهب لونهم أمام الموت، ويشتدّ عليهم الخوف والقلق، وهم بذلك يثيرون الإعجاب، لأنّهم مع خوفهم الموت لم يهربوا منه من أجل المسيح. وتلك حال بولس، فإنّه، وإن خشي الموت، لا يرفض الجحيم من أجل يسوع الذي كان يحبّه حبًّا جمًّا" (٦، ٤). وفي مكان آخر يقول أيضًا: "ألا ترى أجسام الشهداء، وقد اخترقتها السيوف، تتهاوى أمام الحديد، وأمّا إرادتهم فلا تستسلم ولا تقبل الانهزام" (٦، ٦). لهذا قيل وبحقّ: "إنّ الإرادة مع الطبيعة طبيعة ثانية" (٦، ٦). ضعف الطبيعة عند الإنسان أمر طبيعيّ ولا مفرّ منه، لكن ما هو غير مستحبّ هو أن يُستعبد لهذا الضعف ولا يُعمِل فيه الإرادة الذاتيّة ونعمة الله، حتّى ترفعه من مستوى هذه الأرض: "أيّ عنصر اتّهام في أن يخشى الإنسان الموت؟ وفي المقابل، أيّ شخص أدعى إلى المديح من إنسان يخشى الموت ولا تقوده تلك الخشية إلى التسفُّل في الشعور والعاطفة! فلا يُدان الإنسان لكونه بطبيعة ذات شوائب بل عندما يكون عبدًا لتلك الشوائب" (٦، ٥).

لم يسعَ بولس في هذا المضمار طمعًا في جائزة، بل "حبًّا بالفضيلة ذاتها" (٢، ٢). ولم يكن يتذرّع بالضعف البشريّ ليتكاسل، ولا بالانهماك في العمل، ولا بكثرة الأخطار والعوائق، بل كانت هذه بالذّات محفّزًا له إلى التقدّم والثبات. لقد انذهل الذهبيّ الفم بقدرة بولس في قلب الموازين المعروفة: "كان يسعى وراء الخزي والمهانة لأجل التبشير بالإنجيل أكثر ممّا نسعى نحن إلى الغنى، إلى المشقّات أكثر ممّا غيره إلى الراحة، وليس أكثر فحسب، بل أكثر وأكثر، وإلى الحزن أيضًا أكثر ممّا غيره إلى المسرّة، وإلى الصلاة من أجل أعدائه أكثر ممّا غيره إلى اللّعنات. إنّه يقلب موازين الأشياء" (٢، ٣). لذلك "حياته إنّما كانت صراعًا دائمًا وغلبة دائمة"[١٠].

٣- بولس المحبّ المسيح

في معمعة جهاده هذه، أمرًا واحدًا كان يبغيه بولس: محبّة المسيح؛ وأمرًا واحدًا كان يتجنّبه: إهانة الله؛ وعقوبة واحدة كان يخشاها: فقدان محبّة المسيح. كان بولس، بالنسبة إلى الذهبيّ الفم، عاشقَ المسيح بامتياز، يملك في ذاته أغنى الكنوز، أي محبّة المسيح: "إنّ سعادته العظمى هي الحصول على هذه المحبّة: هذا هو الحياة، هذا هو العالم بأسره، هذا هو نصيب الملائكة، هذا هو الحاضر، هذا هو المستقبل، هذا هو الملكوت، هذا هو الموعد، هذا هو فيض الخير" (٢، ٥). ومن أجل هذه المحبّة كان بولس يستسهل كلّ شيء. من أجلها أضحت "السلاسل حلية أبهى من التاج على رأس نيرون" (٢، ٥)، والمشقّات نعمة، والموت مكافأة. ومن أجل هذه المحبّة، احتقر بولس كلّ خيرات

(١٠) في الكهنوت، ٤، ٦.

الأرض ومباهجها. كلّها كانت "في عينيه نسيج عنكبوت" (٢، ٤).

وفي أكثر من مكان، كرّر الذهبيّ الفم هذه المقولة: "لم يحبّ أحد المسيح كما أحبّه بولس"[١١]. قلب بولس، إنّما كان قلب المسيح[١٢]، فأصبح "العاشق الهائم بالمسيح"[١٣]. لذلك "حيث يكون بولس، هناك المسيح"[١٤]، لأنّ "بولس هو صديق العريس الواقف بقرب المسيح"[١٥]. ليس هناك أفضل من بولس كسبيل لنا يقودنا نحو المسيح: "الذي يقتدي تمامًا بالختم =[بولس]، يستنسخ من جديد المثال =[يسوع]"[١٦].

٤- بولس المحبّ الجميع

ولأنّ بولس أحبّ المسيح هكذا، عمل على أن يغنم بهذه المحبّة جميع الناس، خصوصًا بني قومه اليهود: "كان يطلب نار جهنّم، ويطلب القصاص الدائم، ويفضّل الهلاك لنفسه من أجل خلاص اليهود واقتيادهم إلى المسيح [...]. فمن أحبّ المسيح إلى هذا الحدّ؟"[١٧]. في الواقع استحوذ موضوع علاقة بولس مع بني أمّته حيّزًا مهمًّا من تفكير الذهبيّ الفم. فراح يشرح كيف عامل بولس اليهود، وبأي حدبٍ كان يعطف عليهم، هم الذين تباروا في اضطهاده وتفانوا في تعذيبه، فتمّم بذلك على أفضل وجه وصيّة المسيح في محبّة الأعداء: "من الثابت أنّ لا أحد أحبّ أعداءه كما أحبّهم بولس، ولا أحد نافسه في الإحسان الذي قدّمه للذين نصبوا له الفخاخ، ولا أحد تحمّل الأعذبة التي تحمّلها هو من أجل الذين ضايقوه" (٣، ٢). كانوا هم بالمقابل يزبدون عليه كالمجانين، بينما هو كان لهم كأب يحبّ ابنه، ولو مجنونًا: "بمقدار ما كانت شراستهم تشدّد عليه الخناق، كان يزداد رأفة بهم ويرثي لما هم عليه من حماقة، وكأب عطوف على ابن له مجنون – فبقدر ما يشتدّ هياج هذا المجنون ويهمر الأرض بشراسة يشتدّ ألم الأب ويذرف الدموع – هكذا كان بولس يزداد اهتمامًا لهم مع ما اكتشفه منهم من نوايا شيطانيّة" (٣، ٢). وبطريقة ذكيّة راح الذهبيّ الفم هنا، وعلى ضوء أع ٢٠: ٣١، يصف العذاب النفسيّ الذي عاناه بولس في سبيل توبة بني أمّته: "هكذا كان بولس في الحقيقة، يبكي ليلاً ونهارًا، ويجد في البكاء تعزية؛ وما من أحد رثى لمآسيه الخاصّة كما رثى هذا الرجل لمآسي الآخرين. بماذا كان من الممكن أن يشعر وهو يفكّر في هلاك اليهود الذين كان يتمنّى أن يُحرمَ من المجد السماويّ في سبيل خلاصهم؟ فمّما لا شكّ فيه أنّ فكرة هلاكهم كانت أقسى ما يعانيه" (٢: ٦). حاول كلّ شيء لاستمالتهم إلى المسيح، ولمّا كان يفشل، كان يسرع إلى نبش الأعذار لهم، ومقاومة مَن كان يحتقرهم لهذا السبب: "أبدًا يذرف الدموع من أجلهم، يتوجّع، ينهض في وجه من يعمل على الإيقاع بهم، ويبذل المستطاع في أن يجد لهم ظلّ عذر" (٣، ٣).

ليس اليهود فقط من كانوا محطّ تفكيره وهمّه، بل البشر كلّهم. يستذكر الذهبيّ الفم هنا فكرة بيبليّة قديمة ويستعين بها كي يصف وسع

(١١) في الرسالة إلى الرومانيّين، ٣٢، ٣؛ في الكهنوت، ٣، ٧.
(١٢) في الرسالة إلى الرومانيّين، ٢٢، ٣.
(١٣) *De compunctione I ad Demetrius*, 7, 8.
(١٤) *In Illid: Salutate Priscillam*, I, 3.
(١٥) *De obscuritate prophetarum*, I, 6.
(١٦) في الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين، ١٣، ٣.
(١٧) في الكهنوت، ٤، ٦.

محبّة بولس. في القديم كان كلّ شعب يتكفّل بعنايته ملاكٌ في السماء، فميخائيل مثلاً وُكل إليه أمر الشعب اليهوديّ (راجع دا ١٠: ١٣، ٢١؛ ١٢: ١)، أمّا بولس فاهتمّ ليس بشعب واحد، بل "وُكل إليه أمر الأرض والبحر، والكون المأهول وغير المأهول" (٢: ٨). ما ترك شيئًا إلاّ وعملَه من أجل أن يربح الجميع للمسيح: صلّى، سافر، كتب، وعظ، وبّخ... شبّهه فم الذهب "بقائد أعلى يقوم بنفسه مقام جنديّ المشاة، والفارس، والمقاتل في الجبهة، ومساعد الفارس، والقائم بجميع الأعمال في سبيل فرقته" (٣، ٦).

واهتمامه هذا لم يقتصر فقط على الأمور الروحيّة، بل تعدّاها أيضًا إلى الأمور المادّيّة. ذكّر فم الذهب باهتمام بولس بمسألة أونيسيموس العبد الهارب من خدمة سيّده والذي من أجله كتب الرسالة إلى فيلمون، وبتوصياته "المادّيّة" بفيبة خادمة الكنيسة في كنخريّة (راجع رو ١٦: ١) وباستفانا في كورنثس (راجع ١كور ١٦: ١٥-١٦)، وبزيناس معلّم الشريعة وأبلّس (راجع تي ٣: ١٣). هذه القضايا مهما كانت ثانويّة استحوذت، لفيض محبّة الرسول، على جزء لا بأس به من اهتماماته: "لم يكن العيب في نظره إلاّ في التخلّف عن عمل مفيد وجب القيام به. ولهذا كان يحرّك السماء والأرض، ولا يتردّد أبدًا، من أجل مَن ينعمون بالخلاص، في بذل أقواله ومقتنياته ونفسه" (٣، ٨). هذه هي المحبّة المتجسّدة بعينها، التي ميّزت أيّما تميّز حياة القدّيس بولس: "لا تحدّثني، يقول فم الذهب جازمًا، عن الأموات الذين بعثهم، ولا البرص الذين طهّرهم: الله لا يطلب منك مثل هذه الأعمال، حصّل محبّة بولس تحصل على إكليل كامل" (٣، ١٠). إنّ المحبّة هي "أشدّ الفضائل إدناء من الله" (٣، ١)، لأنّها "عمل مشترك في ما بيننا وبين الله" (٣، ١). وبولس كان فيها، سواء متكلّمًا أو فاعلاً، "أشد اتّقادًا من اللهب... إذا اشتعلت فيه نار المحبّة يتحوّل كلّيًّا إلى محبّة" (٣، ٩).

لذلك لا غرو إذا فاق بولس الجميع فضيلة، ما على الأرض من بشر وما في السماء من ملائكة: "ضع في كفّة ميزان العالمَ بأسره، وفي الكفّة الأخرى نفسَ بولس، تجد أنّ نفس بولس هي الراجحة (...) وإذا لم يكن العالم مستحقًّا له، فما الذي يكون له مستحقًّا؟ قد تكون السماء؟ وهي نفسها غير كافية" (٢، ٧). وحده المسيح فاقه صلاحًا بما لا يُحدّ، بقدر ما يفوق الصلاحُ السوء: "الله لا يحبّنا كما نحبّه نحن، بل على درجة أسمى لا يستطيع الكلامُ أن يعبّر عنها" (٢، ٧).

٥- بولس تعمل فيه نعمة الله: في دعوته كما في غيرته الرسوليّة

لم ينسَ الذهبيّ الفم أن يعطي تفسيرًا لأهمّ حدث في حياة بولس، ألا وهو حدث ارتداده على طريق دمشق. فكيف لا يلتفت خطيب أنطاكية، وهو المبحر في حياة بولس طولا وعرضًا، إلى الحدث الذي ولّد بولس للإيمان المسيحيّ؟ في ذلك الحدث، عاش بولس مفارقة مؤلمة كان لا بدّ منها كي يتولّد فيه الإنسان الجديد: صار كفيفًا، لكن كي يستعيد نور البصيرة: "حين دُعي قديمًا فقد بصره، ولكنّه بفقدان البصر أصبح نورًا للعالمين. فبما أنّه كان سيّئ النظر أحسن الله إليه حين جعله كفيفًا، ليستعيد البصر والبصيرة معًا. (...) لم يكن من الممكن أن يستعيد نظره استعادة ناصعة لو لم يفقده فقدانًا فاجعًا" (٤، ١). هذه الارتداد القاسي كان لا بدّ منه لشخصيّة كشخصيّة بولس ذي "الطبيعة العنيفة الصلبة" (٤، ٢). لقد عرف الله تمامًا كيف يتعامل مع بولس، فينقله من الثورة إلى الهدوء: "كبح الله فيه هذه الحميّة الحمقاء، وأخذ يهدّئ أمواج هذه الثورة المتأجّجة بكفّ بصره" (٤، ٢). وبعد أن تعمّد، لم ينتظر بولس أحدًا، ولم يستحصل على إذن من هم قبله، بل انطلق إلى العمل كالسهم المحكّم، تدفعه إلى ذلك حميّة للربّ ملتهبة كالنار: "إنّها أريحيّة نفس نبيلة، وقلب سخيّ، تأبى أن تتحمّل بصمتٍ شقاء الآخرين، ولو لم تنتدب إلى ذلك" (٧، ٤). "لم يُخلد بولس يومًا إلى الراحة، هو الأشدّ اضطرامًا من النار،

ولكنّه منذ صعوده من الينبوع المقدّس، سَرَتْ في عروقه نار محتدمة، وازدرى المخاطر وهُزء اليهود واحتقارهم، أو قلّة إيمانهم، أو أيّ عقبة من هذا النوع، وتحوّلت عيناه إلى عينَي محبّة، وتحوّل عقله إلى عقل آخر، فانطلق بحركة مندفعة، كأنّه السيل، وجرف في اندفاعه جميع مواقف اليهود، وحجّهم بالكتاب مبيّنًا أنّ يسوع هو المسيح" (٧، ٦).

وتجاه من يشكّك في الطريقة التي تعامل الله فيها مع بولس، يقف الذهبيّ الفم بحزم محاججًا ومبيّنًا أنّ ما حدث على طريق دمشق إنّما كان دعوة علويّة من الله، وليس أبدًا نتيجة قوى بولس الطبيعيّة أو الفكريّة أو الروحيّة: "قد يُقال: لماذا لم يَجرِ هذا الحدث منذ البداية؟ لا تطرحْ عبثًا هذا السؤال، ولا تكن فضوليًّا، بل دعْ للعناية الإلهيّة غير المدركة أمر اختيار الوقت الملائم. (...) لا أحد من الذين سبقوه، ولا هو نفسه وجد المسيح بقواه الذاتيّة، ولكنّ المسيح هو الذي ظهر شخصيًّا وقد قال: «لستم أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم» (يو ١٥: ١٦). لماذا لم يؤمن وقد رأى أمواتًا يُبعَثون بقوّة اسمه؟ لماذا لم يتّعظ وقد رأى مقعدًا يمشي وأبالسة ينهزمون، ومخلّعين ينهضون على أرجلهم. وكان على علم بهذا كلّه هو الذي كان يتحرّى أعمال الرسل بدقّة. وعندما رُجم إسطفانس كان حاضرًا، وكان يرى وجهه أشبه بوجه ملاك، ومع ذلك لم يُجْدِه الأمر نفعًا. لماذا لم يُجْدِه الأمر نفعًا؟ إنّه لم يكن بعد قد تلقّى الدعوة" (٤، ٣).

ليست دعوة بولس وحدها بل حياة بولس كلّها، خصوصًا شقّها الرسوليّ، هي ذات مصدر إلهيّ. فما كان بولس عليه، إنّما كان بنعمة من الله وقوّته. لقد برع الذهبيّ الفم، في العظة الرابعة من التقاريظ، ومع شيء من المبالغة، في أن يبيّن مدى عظمة عمل الله في شخص بولس الرسول. لقد استطاع هذا الرسول الأعزل أن ينجز ما عجز عنه ملوك عظام وأباطرة مدجّجين بالأسلحة والجيوش: "رجل كان يقيم في الساحة العامّة، ويتعاطى الدباغة، أصبح من القدرة بحيث استطاع أن يهدي إلى الحقيقة الرومانيّين، والفرس، والهنود، والشيتيّين، والأحباش، والسرماطيّين، والفرتيّين، والماديّين، والبرابرة، وبصريح الكلام جميع الجنس البشريّ، بأقلّ من ثلاثين سنة. قل لي أنّى لأليف الساحة العامّة هذا، الذي كان يقيم في حانوته ويخادن المِقدّة، أنّى له أن يعالج بنفسه فلسفة كهذه، وأن يقنع بها الآخرين، شعوب مدنٍ وقرى، لا ببلاغة قويّة، بل بعكس ذلك أي بكونه مجرّدًا من كلّ ثقافة؟" (٤، ١٠).

وممّا يزيد عمل بولس قيمة هو أنّه استطاع، بالرغم من المعاكسات الكثيرة التي واجهته من قبل الرومان واليهود وأحيانًا من الإخوة الكذبة، أن ينشر الإنجيل ويجعل حقيقة المسيح تسطع كالشمس. ينقل الذهبيّ الفم هنا شهادة قيّمة عن الاتّهامات التي كان يكيلها الرومان ضدّ المسيحيّين الأوّلين، من أنّهم كانوا يسعون إلى تهديم الأمبراطوريّة الرومانيّة وتقويض نظامها وإلغاء تقاليدها وعاداتها. وإذا اتّصف الرومان بهذه الفظاظة في تعاملهم مع المسيحيّين، فماذا يُقال عن اليهود الذين اتّهموا بولس نفسه بمسؤوليّة ضياع حقوقهم الرومانيّة (راجع ٤، ١٦-١٧). ولم يكفّ بولس كيدُ الوثنيّين واليهود، بل أتاه أيضًا ظلم ذوي القربى وإخوة الإيمان الكاذبين، وقد كان أشدّ مضاضة عليه وأوحش قسوة.

لكن، ماذا كانت النتيجة؟ "كان الطوباويّ بولس يندفع في هذه النيران المتأجّجة، منتصبًا بين الذئاب، وهدفًا للضربات من كلّ جهة، فلا يقوى عليه أحدٌ بل يقوى على الجميع ويقودهم جميعًا إلى الحقيقة" (٤، ١٧). وما أراده له أعداؤه من شرّ، عرف بولس كيف يحوّله إلى خير من أجل البشارة. من حيث لا يدرون، خدمه أعداؤه باضطهادهم له أحسن خدمة: "وما كان بإمكان أصدقائه أو أتباعه أن يفعلوه، فعله أعداؤه حين لم يدَعُوه يقيم في بلد واحد، بل أرسلوا هذا الطبيب، بفخاخهم وملاحقاتهم، إلى كلّ مكان، بحيث أنّ الجميع كانوا يسمعون كلمة بولس" (٧، ١١). الذي

سجنَه، أصبح هو نفسه سجينه (راجع قصّته في فيلبّي في أع ١٦: ٢٥-٣٤)! ومَن رجمه، تاب واهتدى (أع ١٤: ١٩)! رحّلوه مع مساجين، فاصطاد هؤلاء إلى الإيمان: "كالنار التي اجتاحت موادّ مختلفة، وراحت تلتهم كلّ ما تجده في طريقها وتزداد اضطرامًا واشتعالاً، هكذا انتشر كلام بولس، وجذب إليه كلّ من كان على علاقة به، والذين حاربوه، وقد سحرهم كلامه، أصبحوا مادّة انتشار لهذه النار الروحيّة. (...) كان يُطرَد، ويلاحق، والحصيلة رسالات ورسل إلى كلّ مكان" (٧، ١١).

لقد غزا بولس العالم وانتصر. الملوك فتحوا مدنًا وقرى، أمّا هو فالعالم كلّه؛ هم رجعوا من حروبهم بمواكب ظفر يتقدّمهم شعبهم حاملين معهم رايات النصر، أمّا بولس فموكبه كان ليس من بشر بل الملائكة أنفسهم تقدّموه، وفي يده صليب المسيح ملك السماء. بهذه الصورة الملوكيّة الجميلة وصف فم الذهب بشارة بولس في بداية العظة السابعة من تقاريظه: "إنّ من يُكرّمون هذا التكريم في نظام هذا العالم يلبسون ألبسة وعقدًا من ذهب، ويتألّق شخصهم تألّقًا، أمّا بولس فتلفّه سلسلة هي له في موقع الذهب، حاملاً الصليب: إنّه مضطهدٌ، مجلود، جائع" (٧، ١). لم تنفصل البشارة عن الألم عند هذا الرسول. فالإثنان صنوان لا افتراق بينهما. والعجب هو في أنّ الألم جمّل بولس أكثر من حلى هذا الكون: "فمن أعجب الأمور أن تجعله الرُبُط وضربات المجالد أكثر ألقًا من رداء الأرجوان والتاج عند الذين يلبسونهما" (٧، ٢).

ومن بعد أن انتهى من عرض براهينه عن عظمة عمل قوّة الله في حياة بولس وفي بشارته، راح الذهبيّ الفم، وبكثير من الروعة، يكتب في هذه الغَيرة البولسيّة أجمل الكلمات. سنتركه يتكلّم، ولو أطال، لنتلذّذ بسحر الصورة وجمال الاستعارة: "وكما تتلاشى الأشواك بسرعة في الأتّون المشتعل، ثم تختفي تاركة المجال للّهب الذي يطهّر الحقول، كذلك كانت كلمات بولس عند انطلاقها ووقوعها في الأسماع، وهبوطها على كلّ شيء، بعنف أشدّ من عنف النار، فيتوارى كلّ شيء، ويدع المجال واسعًا؛ عبادة الآلهة، الأعياد والاجتماعات الاحتفاليّة المقامة لهم، غضب الشعوب وسورتها، تهديدات الطغاة، مؤامرات أبناء جلدته ولؤم الرسل الكذبة. وأفضل من ذلك: كما إنّه عند شروق الشمس تتبدّد الظلمات، وتختبئ الوحوش وتتوارى، ويهرب اللّصوص، ويأوي المجرمون إلى كهوفهم، ويبتعد قراصنة البحر، ويتراجع سالبو القبور، ويشعر الزناة وناقبو الأسوار بأنّهم سيُؤخذون في جرمهم على ضوء الشمس فيتعدون ويتوارون – إذ إنّ كلّ شيء يسطع ويتلألأ، الأرض والبحر، بفعل الشمس التي، من فوق، تنير كلّ الأشياء، البحار والجبال، والريف والمدينة – كذلك كرازة بولس، فما إن تظهر للعيان، وتنتشر في كلّ مكان، حتّى ينهزم الضلال، وتعود الحقيقة، وتنتهي وتختفي شحوم الذبائح ودخانها، الصنوج والدفوف، ولائم السكر، أعمال البغاء والزنى، وسائر التجاوزات التي لا يليق ذكرها، والتي كانت تجري في هياكل الأصنام، تنتهي ذائبة كالشمع أمام النار، ومتلاشية كالقشّ أمام اللّهب؛ وعلى أنقاض ذلك كلّه تتصاعد شعلة الحقيقة، متألّقة ساطعة، وترتفع حتّى السماء نفسها، أعلى ممّا كانت تقاوَم به، وأقوى ممّا كان ينصب أمامها من عقبات، لا يقوى شيء على انتشارها وانطلاقها القهّار، لا الأخطار، ولا جبروت الطغاة القديم، ولا عادات الأجداد وتقاليدهم وشرائعهم، ولا مقتضيات التعاليم الوثنيّة الشائعة، ولا شيء آخر أيًّا كان" (٤، ١٨).

٦- بولس المتكيّف حسب ضرورات البشارة

في العظة الخامسة من تقاريظه، يسهب الذهبيّ الفم في مدح ذكاء بولس، العمليّ لا العقليّ. لقد اندهش

بقدرة هذا الرجل على التكيّف بحسب ما تمليه عليه البشارة، هذا التكيّف الذي يظهر للعيان على أنّه تناقض رهيب في شخص الرسول وفي قراراته. لنأخذ مثلاً فل ١: ٢٣، حيث يخبر بولس عن نزاع عاشه بين أن ينطلق نحو المسيح، وفي هذا رغبته الشديدة، وبين أن يبقى سجين الجسد من أجل أهل فيلبّي. يعلّق فم الذهب على هذه الآية ويقول: "لا أحد، في موقفين متناقضين، استطاع أن يسلك بهذه العناية الدقيقة، مسلكًا مزدوج البعد في آن واحد. لا أحد تعلّق بالحياة الحاضرة هذا التعلّق، حتّى من الذين أغرموا بها، ولا أحد حقرها إلى هذا الحدّ حتّى من الذين بلغوا القمّة في التقشّف" (٥، ٤). بدا بولس إنسانًا متعدّدًا ومتنوّعًا، يماشي حاجات الساعة، ويستفيد في كلّ موقف من الأحوال السائدة. إنّه رجال عدّة في رجل واحد: كان مع اليهود يهوديًّا، ومع الوثنيّين وثنيًّا، ومع العبيد عبدًا ومع الأحرار حرًّا... صمت حيث يجب أن يصمت، وافتخر حيث وجب الافتخار، تودّع حيث تجب الوداعة، وغضب حيث ينفع الغضب... بيد أنّه "كان أبدًا هو إيّاه" (٥، ٦)، و"رغباته كانت أبدًا متّفقة وإرادة الله (...). لم يكن له من الرغبات إلاّ نوع واحد، تلك التي تغنيه في نظر الله" (٥، ٤). تنوّعَ بولس ليس أبدًا عن جُبن واسترخاء: "الذي كان يئنّ لبقائه في هذا العالم، كيف لا يؤثر الانطلاق إلى جوار المسيح؟ والذي كان لا يبالي بالسموات ولا بالملائكة لأجل المسيح، كيف يمكن أن تكون له رغبة في أمور الدنيا؟" (٧، ٨). ولا أيضًا عن رياء ومخادعة بل من أجل خلاص من يبشّرهم: "عندما تراه يتجنّب الأخطار أنظر إليه بالإعجاب نفسه الذي تعجبه عندما تراه يتحدّاها: فإذا كان هذا الموقف الثاني موقف شجاعة، فالأوّل موقف حكمة. إعجب له عندما تراه يتكلّم بسلطان إعجابك به عندما تصبح لهجته معتدلة: في هذه يبدي تواضعًا، وفي الحالة الأولى عزّة نفس. إعجب به عندما يفخر، إعجابك به عندما يرفض المديح. إذا كان موقفه الثاني عن حشمة، فموقفه الأوّل عن قلب يفيض حنانًا وصلاحًا. وهكذا فأعماله كلّها تصدر عن رغبة في خلاص الجماعة" (٥، ٨). لقد شبّه الذهبيّ الفم بولس بطبيب حاذق يعرف متى يصف دواءً حلوًا وآخر مرًّا بحسب ما تقتضيه حالة المريض: "فإذا كنّا نمتدح الطبيب عندما يلجأ إلى علاجات متناقضة، فيجب علينا بأولى حجّة، أن نشيد عاليًا بنفس بولس التي سلكت السلوك نفسه في سبيل المتألّمين" (٥، ٧). الله نفسه، بحسب فم الذهب، التجأ إلى "مداورات" في تعامله مع الإنسان، لا عن عجز بل بسبب ضعف طبيعتنا (٥، ٨).

إذا كان هدف خلاص سامعيه يسمح له بأن يتنوّع في تصرّفاته، فهناك أيضًا حقيقة أخرى أملت عليه، في بعض المرّات، أن يتصرّف بطريقة ينفر منها السامع. إنّها حقيقة البشارة أي الإنجيل. إن اغتاظ مرّة أو إن اتّخذ قرارًا مؤلمًا أو تصرّف بقسوة أو تكلّم بحزم، فلم يكن يفعل هذا لسبب شخصيّ أو ليطالب بحقّ سُلِبَ منه، بل لأجل الإنجيل. يعدّد الذهبيّ الفم بعضًا من هذه الحالات: لمّا اضطّر إلى أن يفصل هُمَنايُس والإسكندر عن الجماعة (١تيم ١: ٢٠)، عندما أسلم زاني كورنثس إلى الشيطان (١كور ٥: ٣-٥)، عندما شتم رئيس الكهنة (أع ٢٣: ٣)، وخصوصًا عندما رفض أن يرافقه في رحلته الثانية مرقس المتخاذل في الرحلة الأولى (أع ١٥: ٣٨).

إنطلاقًا من المثل الأخير، يسهب الذهبيّ الفم في الكلام على الصفات التي وُجب وجودها في أيّ قائد. طبعًا تكلّم الذهبيّ الفم وفي ذهنه شخصيّة بولس نفسها: "من الضروريّ لمن يضطلع بهذه الخدمة أن لا يستسلم لأيّ استرخاء ولا يعروه الخَور، بل أن يكون مقدامًا نشيطًا، وأن يُعرض عن هذه المهمّة النبيلة، إذا لم يكن أهلاً لها؛ وعليه إذا تجنّد لها أن يجابه الموت والأخطار ألف مرّة" (٦، ١٢). إذا كانت هذه الصفات يُطلب وجودها عند أيّ قائد، فكم أولى عند من تجنّد للتبشير بالإنجيل، ومرقس كان واحدًا منهم، حيث الأخطار أعظم والخصوم

أشدّ عنادًا: "لهذا فُصل، وبحقّ، إذ إنّه، بعدما جعل نفسه على خطّ القتال، في الجبهة، أظهر استرخاء وجُبنًا شديدَين، ولهذا فصله بولس عن الآخرين، حتّى لا يشلّ فتورُه انطلاقهم" (٦، ١٢).

وإذا غضب بولس، فغضبه أيضًا ليس عن جَور وظلم، بل عن ضرورة ملحّة يفرضها الإنجيل، وفي هذه الحال الغضب جائز: "ليس الغيظ في ذاته علامة سوء نيّة، ما لم يصدر عن غير داعٍ مشروع" (٦، ١٣). وذهب فم الذهب، في معرض تبرير غضب بولس، إلى اعتبار الغيظ الإيجابيّ فضيلة وضعها الخالق نفسه في الإنسان كي تُستعمل في حينها. وهذا ما فعله الرسول مع مؤمنيه: "لو لم يكن لنا أن نستعمل القوّة الغضبيّة عند الحاجة، لكان وجودها في طبيعتنا من النوافل، التي لا فائدة منها، والأمر ليس كذلك. والخالق إنّما جعلها فينا لإصلاح الخطأة، وإيقاظ الكسل وطرده من النفس، وإنهاض النائم أو المهمِل من نومه؛ وكحدّ السيف جعل في قلبنا قوّة الغضب لكي نُفيدَ منها عند الحاجة. هذا هو السبب الذي جعل بولس يلجأ إليها غالبًا، وعندما كان يسخط، كان أجدر بالإعجاب من أولئك الذين يمزجون أحاديثهم باللّين، لأنّه كان يسعى، أبدًا وفي الوقت الملائم، إلى ما تقتضيه مصلحة التبشير بالإنجيل" (٦، ١٣).

خاتمة

في مكانٍ ما من تقاريظه، يقول يوحنّا إنّ بولس "ليس بحاجة إلى كلّ منّا" (٦، ١٤)، ولا إلى البليغ من كلماتنا. مع ذلك، تركنا نبحر معه في بحر بولس الشاسع، هذا البحر "الذي يحمل المسافرين من الأرض إلى السماء. مَن يستسلم لأمواجه يطمئنّ من أنّه سيبحر مع ريح مؤاتية. في هذا البحر لا تهدر الأمواج، بل هي هبّة الروح القدس الإلهيّة التي تنفخ في الأشرعة وتقود النفوس إلى الميناء. هنا ينعدم هيجان الأمواج، والصخور، والوحوش البحريّة، ويسيطر السكون العميق. هذا البحر هو أكثر سلامًا وأكثر أمانًا من أيّ مرفأ يمكن أن نتخيّله. الأمواج التي تتماوج عليه تعكس وهج الشمس وهيأتها. لا يحتوي هذا البحر في أعماقه لا أحجار كريمة، ولا أصداف يُستخرج منها الأرجوان، بل يحوي كنوزًا أكثر غنىً. من يبغي النزول إلى أعماق هذا البحر، لا تلزمه أدوات الغطس أو غيرها، بل فلسفة عظيمة. وهناك سيجد جميع الخيرات التي يحويها ملكوت الله"[١٨].

أبحرنا مع الذهبيّ الفم، وقِبلتنا جميعًا "أن نبلغ المرفأ الذي لا تنتابه الأمواج، مثقلين بثروة النعمة" (٦، ١٤). ووجدنا أنّ كلامه في بولس يَخرجُ من فمه عسلاً، يصعب اختصاره أو اختزاله، حتّى غدا هو نفسه "بولسًا آخر"[١٩]. وأدركنا أنّ خطيب أنطاكية يدين بجزء كبير من عبقريّته إلى ابن طرسوس. فم الذهب نفسه يعترف بذلك: "إذا كنتُ أعرف شيئًا، فمردّ ذلك، لا إلى أنّ لي عقلاً متفوّقًا، بل لأنّ حبّي للقدّيس بولس يحثّني دائمًا على مطالعة كتاباته. المحبّ هو أكثر معرفة بمحبوبه من سواه لأنّه يستأثر باهتمامه"[٢٠].

إنّ حبّ يوحنّا لبولس وصل به إلى نشوة السكر، وما من أحد يقدر أن يمنعه عن "الشرب" من مَعين هذا الرسول العظيم: "قولوا ما أردتم لسكّير، فلن تمنعوه عن الشرب"[٢١].

(١٨) في أعمال الرسل، ٥٥، ٣.

(١٩) هكذا قال البابا بينيدكتوس السادس عشر في الذهبيّ الفم، أثناء المقابلة العامّة، نهار الأربعاء في ٢٦ أيلول ٢٠٠٧.

(٢٠) في الرسالة إلى الرومانيّين، ٦٠، ٥٩١.

(٢١) في الرسالة إلى الكولوسيّين، ٦٢، ٣٦٩.